

جوانب من تاريخ السجون

دريس بن مصطفى

أستاذ التاريخ بقسم العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة الطاهر مولاي - سعيدة الجزائر

الملخص:

يتناول هذا البحث بالدراسة جانبا مهما لمؤسسة-السجن- طالما أثارت الجدل حول فحوى إيجادها ودورها في ضبط السلوك الاجتماعي وإقرار الأمن داخل الأمصار والدول، وهذا ما حدا بالبعض إلى البحث عن بدائل له قد تؤدي إلى نتائج أنجع تعود على المجتمعات بالنفع وتساعد على اندماج مرتكبي المخالفات أو الجنح وتحولهم من عناصر فوضي وفساد إلى عناصر إصلاح وتعمير.

يقال أن السجن مصنع الرجال، فكم ألهم من الشعراء، وأسأل حبر العديد من الأدباء والمتقنين الذين عاشوا في غيابه، حتى ظهر ما يعرف بأدب السجون، لقد ضمت السجون والمعتقلات عبر مسار التاريخ شخصيات عديدة منهم فعلا من استحقوا العقوبة، لكنها وفي نفس الوقت قد أوصدت أبوابها على الكثير من الأبرياء سواء ألبسوا تلك التهم خطأ أو كانوا سجناء الكلمة والرأي السديد.

والسجن بمفهومه العام والشائع، إجراء وقائي تقوم به سلطة أو هيئة أمنية ضد شخص أو مجموعة من الأشخاص ترى بأنهم يشكلون خطرا على أمن وسلامة المجتمع إما ماديا أو فكريا أو أدبيا، ويتم ذلك وفق قانون يخول لها ذلك، ونظرا لأهمية هذه المؤسسات ودورها في حفظ النظام فقد ظهرت منذ القدم، وشهدت تطورا هاما من حيث طرق تشييدها وقوانينها والأهداف المرجوة منها.

ماهية السجن المادية والمعنوية:

السجن في مفهومه العام والشائع هو سلب حرية إنسان بوضعه في مكان يقيد حريته، أو هو طريقة لاحتجاز شخص بموجب حكم قضائي أو قرار إداري من سلطة معينة، تستند إما إلى قانون ينص على عقاب الشخص لكونه ارتكب جريمة، أو لمجرد قرار تقديري من سلطة مخولة باحتجاز الأشخاص كإجراء وقائي تقوم به إدارة الأمن بوصفها سلطة عامة للحفاظ على مشتببه به حتى إتمام تحقيقاتها.

والسجن هو بحسب الأصل نوع من أنواع العقوبات الجزائية، ولذلك لا يتم استخدامه إلا وفقا للقانون، وهو كإجراء وقائي مخول للسلطة أو الإدارة لتقديرها أن شخصا بعينه يشكل خطورة على المجتمع أو يشكل تهديدا على المجتمع أو النظام، وهو بهذا المفهوم الأخير يسمى أيضا "اعتقالا"، وهذا الأخير يكون تعسفا من السلطة العامة التنفيذية إذا استطالت مدته على النحو الذي يساوى فيه بين المعتقل لشبهة دون ثبوت جرم فعلي، وبين المسجون لكونه قد ارتكب بالفعل جريمة يعاقب عليها القانون بالسجن وسلب الحرية.

أما السجن كمجال أو حيز، فيطلق على المكان الذي يتم فيه سلب حرية الإنسان، وهو المكان المعد لحبس شخص أو أكثر، بما يتطلبه الأمر من وضع للأسوار والقضبان الحديدية والحراس لمنع المساجين من الفرار، وبعبارة أخرى يتم وضع كل الوسائل الممكنة لمنع الشخص من الخروج من المكان المحبوس فيه وتحت سيطرة كاملة لحراس السجن.

أما لغة فقد وردت بخصوصه الكثير من التعاريف، فالسجن بتشديد وفتح السين هو المصدر، بينما بتشديدها وكسرهما هو الحبس أو مكان إيداع السجناء⁽¹⁾ وحسب ما ورد في مختار الصحاح، فالسجن ببساطة هو الحبس⁽²⁾، كما وردت الكثير من الألفاظ في العديد من المعاجم والقواميس العربية التي تشير إلى عملية السجن وتبين سوءها أو صعوبتها، لأن السجن قد يكون مرادفا أو مساويا للعذاب الأليم، وهذا ما نستشفه من خلال قول امرأة العزيز لزوجها عن يوسف عليه السلام (مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)⁽³⁾. ومن هذه العبارات الدالة: الحزقة، فيقال حزرَق الرجل، أي حبسه وضيق عليه، وفي التهذيب حبسه في السجن⁽⁴⁾، ويقال أيضا زبقه، وهذا ما نستشفه من قول لأحد الشعراء يعرف بثعلب.

وموضع زبق لا أريد مبيته***كأني به من شدة الروع أنس⁽⁵⁾

1. ابن منظور (محمد بن مكرم الإفريقي المصري)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، ج13، ص203.

2. الرازي محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، طبعة جديدة، تحقيق محمود خاطر مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، 1415هـ/ 1995م، ص121.

3. سورة يوسف، الآية 25.

4. ابن منظور، المصدر نفسه، ج10، ص48.

5. نفسه، ج10، ص137.

كما عرف السّجن باسم الديماس، فقد شاعت هذه الكلمة أو التسمية في عهد الحجاج بن يوسف النّفقي، ولعلّها خصّت سجونهُ وسجون غيره من عمّال العزاق⁽¹⁾، ويعرف أيضاً بالمخيس، ففي قول العرب دع فلاناً يخيس، أي بمعنى دعه يلزم موضعه الذي هو فيه، ومن هنا سمي السجن مخيساً، لأنّه يخاس فيه الناس ويلزمون نزوله، والمخيس بالفتح موضع النّخيس⁽²⁾ أي السجن. أما عملية الحبس فتعرف أيضاً بالليان، فقد حكّا ابن بري عن أبي زيد، قال ليان بالكسر قد يجيء بمعنى الحبس وضد التسريح وهذا ما يؤكده قول الشاعر.

يلقى غريمكم من غير عسرتكم **** بالبذل مطلاً وبالتسريح لياناً

رمزية السجن في الأحلام:

للسجن في الأحلام رمزية أو دلالات عدة، منها الموت والوفاة، فيروى أن الفقيه أحمد بن حسن بركات اليمنى الصنعاني المولود في ربيع الأول سنة 1125هـ والذي كانت له باع طويل في تعبير الرؤى والتقرّس في حال الرائي، كان قد رأى في منامه قبيل وفاته أنه أطلق من السجن، فعلم أنه قد دنا أجله، ودعا الفقيه لطف الله بن أحمد جحاف وقال له: أنت وصيي فاكتب، قال: ما اكتب؟، قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم قال: أكتب لا أملك من الدنيا شيئاً سوى بيتي، والكتب لا أملك منها سوى كتاب الأزرق في الطب، ثم سكنت ساعة وقال: علمي معي، أينما يمت كان معي، إن كنت في السوق كان العلم في السوق، أو كنت في البيت كان العلم يصحبني في جيب صدري لا في جيب صندوق، وكانت وفاته في سادس عشر المحرم سنة ست وتسعين ومائة وألف⁽³⁾ (1196). وربما ينطلق تفسير هذا الحلم من القول "الحياة الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"⁽⁴⁾ لأنه - أي المؤمن - مسجون بين النواهي والمحرمات وإن حياته الحقيقية هي في

1. البكري (عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط3، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت 1403هـ، ج2، ص602.

2. ابن منظور، المصدر نفسه، ج6، ص75.

3. الشوكاني (محمد بن علي)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، ج2، ص25-27.

4. المناوي (محمد عبد الرؤوف)، التوقيف على مهمات التعاريف، ط1، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، 1410هـ، ص402.

الآخرة بما وعده الله من جنة ونعيم، وبذلك فهو يخرج من جحيم الدنيا وعذابها إلى الراحة الأخروية الأبدية.

ويقال بأن السّجن في الحلم معناه الحبس عن الجنة بذنوب وتبعات بقيت على صاحبها، وتكرار الحلم دعوة إلى التفكير بتغيير الحياة لما هو أفضل بالصلاة وذكر الله والابتعاد عن السيئات، وإذا كان المرء يفكر بالسفر فعليه العدول عن الفكرة.

ويقال أنه من رأى أنه يهرب من السجن فهي على وجهين: إما خلاصه من مكروه كان قد أصابه أو ليصيبه وإما وفاته.

ويقال أنه من رأى نفسه في سجن فهي إشارة إلى أن دعوته مستجابة.

غايات السجن:

للسجن أربعة أغراض أو أهداف أساسية

أ.الجزاء: ويعني العقوبة على الجرائم المرتكبة ضد المجتمع وسلب المجرمين حريتهم، ففي ذلك سبيل لجعلهم يدفعون ثمن جرائمهم للمجتمع وهنا عادة ما يطرح السؤال حول الهدف من عملية السجن أهي الغاية في حد ذاتها؟ أم أنها وسيلة تمنع ارتكاب السجين مزيدا من الخطايا سواء في فترة سجنه- إن ترك حرا طليقا- أو بعد انقضاء مدة سجنه؟

ب.الإقصاء: وهو إبعاد المجرمين عن المجتمع حتى لا يؤذوا الأبرياء من الناس ولا يسهموا في خلق مزيد من الأشرار ممن قد يختلطوا بهم.

ج.الردع: وهو منع الجرائم التي يمكن أن تحدث مستقبلا إما من طرف الشخص ذاته أو من أطراف أخرى لها صلة به من قريب أو من بعيد.

د.الإصلاح أو إعادة التأهيل: فالإصلاح يشمل النشاطات التي يتم إعدادها لتحويل المجرمين إلى مواطنين صالحين أو على الأقل ملتزمين بالقانون، وقد يشتمل على توفير خدمات برامج تعليمية. في السجن، وتعليمهم مهارات العمل وتقديم إرشادات بمساعدة الأخصائيين النفسانيين والاجتماعيين.

تطور السجون:

اختلف شكل السجون من زمن لآخر، وذلك حسب تطور العمران (من تخطيط ووسائل ومواد بناء)، وأمن البلدان وكذا من خلال رمزية ودلالة السجن، فقد كانت عملية الحبس معروفة منذ زمن الفراعنة،

وتواصلت في العهد الإسلامي وحتى في زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد روى الترمذي في السُّنن في حديث حسن، أن النبي صلى الله عليه وسلم حبس رجلاً في تهمة ثم خلى عنه، وكان في عهد الصحابة رضوان الله عليهم يتكون في بعض الحالات من قصب فقط، كالسجن الذي بناه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالكوفة، وكان قد سمّاه مخيساً، وفيه قال ((أما تراني كيساً مكيساً، بنيت بعد نافع مخيساً))، وكان هذا السجن غير مستوثق البناء، فكان المحبوسون يهربون منه، وقيل إنه ثقب وأفلت منه المحبوسون، فهدمه علي رضي الله عنه وبنا المخيس لهم من مدر¹ أي أنه استعمل الطوب والحجر في بناءه ليكون أكثر منعة وحصانة.

غالباً ما كانت بعض البيوت تشتري من أهلها لتحول إلى سجون، كدار صفوان بن أمية التي ابتاعها منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فجعلها سجناً لمكة المكرمة²، والذي كان المكّيون أو بعضهم على حد تعبير صاحب الكتاب، يزعمون أنه سجن عارم والذي سمي فيما يقولون "سجن عارم" لأن عارماً واسمه زيد ولقبه عارم، كان غلاماً لمصعب بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وكان منقطعاً إلى عمرو بن سعيد وأنه كان يقرأ عليه وأنه غلب مصعباً وجعله على حرسه، فلما وجه عمرو بن سعيد عمرو بن الزبير إلى عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما بمكة خرج عارم مع عمرو بن الزبير، فلما هزم عمرو بن الزبير وأصحابه أخذ مصعب بن عبد الرحمن عارماً وكان مع عبد الله بن بيروت، ج2، ص25-27.

الزبير رضي الله عنه فجعله في سجن مكة وطلا ابن الزبير بينه وبينه فأقامه قائماً ثم بنا عليه نراعاً في نراع ثم شد عليه البناء فمات عارم فيه فسمي سجن عارم وزعم بعض المكّيين أن قبر عارم في ذلك وقال بعضهم حفر له في السجن وكان عارم هذا مولى لنبي زهرة فيما ذكر الواقدي ويقال بل سجن عارم في دبر دار الندوة وهو أصح القولين عند أهل مكة. وسجن عارم أصبح فيما بعد ذلك سجناً للحجاج ولا

1. المدر قطع الطين اليابس وقيل الطين العلك الذي لا رمل فيه واحده مدرّة، ومن هنا سمي سكان المدن بأهل المدر، انظر ابن منظور، نفس المصدر، ج5، ص162.

2. الفاكهي (محمد بن إسحاق)، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ط2، تحقيق عبد الملك عبد الله دهميش، دار خضر، بيروت 1414هـ، ج3 ص340.

أعرف موضعه وأظنه بالطائف¹. وكذا عن سجن ابن سباع الذي بالمدينة والذي كان داراً لعبد الله بن سباع². من هنا ندرك بأن معظم السجون العربية آنذاك لم تتجز لغاية الحبس وإنما اقتضت الضرورة الأمنية إيجاد حيّز أو مجال لذلك مهما كانت وضعيته. ومن السجون المشهورة في البلاد العربية أيضاً علي سبيل المثال لا الحصر، سجن خزانة البنود، بمدينة القاهرة المعزية³ والذي توفي فيه ابن أبي الشخباء العسقلاني صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحيرة سنة اثنين وثمانين وأربعمائة⁴، وكذا الشاعر أبو الحسن علي بن محمد التهامي المشهور الذي ذكره ابن بسام الأندلسي في كتابه الذخيرة السنية⁵، الذي اعتقل به سنة ستة عشرة وأربعمائة، وقتل سرّاً في سجنه⁽⁵⁾. وكذا سجن دُوار - بفتح الدال - باليمامة الذي سجن به السميري الشاعر. كما كانت بعض السجون تأخذ أسماءها من أسماء الأماكن التي تتواجد بها، كسجن باب البريد وسجن الكرك، وسجن الإسكندرية، أو بأسماء مؤسسيها، كسجن الحجاج وسجن الرّشيد وسجن النعمان بن المنذر، أو بتخصصها كسجن الجرائم الذي حبس فيه أبو العتاهية.

كانت معظم السجون ولا تزال تتكون عادة من حجرات أو بيوت تعرف لغة بـ "الضلل"⁽⁶⁾، كناية عن المكان الذي لا تدخله الشمس، أو إلى عملية التغيب التي يتعرض لها المسجون بعزله عن العالم الخارجي، فحسب العرب القدامى يقال "أضلل الميت" أي دفن، ولم يكن العالم الإسلامي أسبق إلى بناء وسنّ قوانين السجون أو حتى التفتن في عمليات التعذيب بداخلها، بل تواجدت في العالم القديم أيضاً، ففي روما مثلاً، كان المجرمون والمساجين السياسيون يوضعون في سجون تقع كلية أسفل الأرض، وأخذت في العهد الفيودالي⁽⁷⁾ خاصة

1. الحموي (ياقوت بن عبد الله)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ج4، ص66.
2. البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر)، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت 1403هـ، ص63.
3. القنوجي (صديق بن حسن)، أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق عبد النجار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م، ج3، ص65.
4. ابن خلكان (أبي العباس شمس الدين)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1968م، ج2، ص89.
5. نفسه، ج3، ص301.
6. ابن منظور، المصدر نفسه، ج11، ص418.
7. أي العصر الإقطاعي، ولم يظهر هذا المصطلح إلا مع بداية الثورة الفرنسية سنة 1789م، رغم قدم هذا النظام.

عدة تسميات تتم عن الغرض منها مثلاً تسمية المخابئ "les cachots" أو "المنسى" "oubliette"، وفي مثل هذه السجون مات القائد الغالي (نسبة إلى غاليا المنطقة) "فيرسينجيتوريكس" بأمر من جوليو سيزار.

يصور لنا الأتابكي جانباً من وضعية السجون العربية في القرن التاسع الهجري وتحديدًا في مصر، إذ كانت تابعة للدولة من حيث كونها أماكن يودع فيها الأشخاص، سواء الذين صدرت بحقهم أحكام بالحبس، أو الذين حبسوا على سبيل التوقيف، أو ما يسمى بالحبس الاحتياطي، كما أن حراسة هذه الأماكن كان يعهد بها إلى الشرطة، إلا أن إدارتها في الداخل والإشراف على نزلائها من الوجوه كافة، كان يعهد بها إلى ضامن يتولى الإنفاق عليها مما يحصله من المسجونين، ويؤدي للحاكم مبلغاً من المال سنوياً، وكان يوجد فضلاً عن هذا الضامن أشخاص يسمون (مقطعين) بعدد السجون⁽¹⁾، كما كان كل مسجون يلزم بدفع غرامة مالية تقدر ب مائة درهم سوى ما يغرمه، ولو لم يلبث إلا يوماً أو بضع يوم، يقوم الضامن بجمعها من سائر السجون، بينما قدر المقرري هذا المبلغ بستة دراهم، فأبطل الملك الناصر بن قلاوون ذلك بمقتضى مرسوم وربما يكون السبب راجعاً إلى عدم التزام الضامن بهذا التحديد لما يحق له أن يأخذه، وحصوله على مبالغ أكبر، كله ومعه الضامن، أي أن السجون تميزت بنوع من الخصوصية في إدارتها المالية، وبالعمومية في تنظيمها وإدارتها.

وكانت عملية الإفراج أو الصّفح والعفو عن المساجين قبل إنهاء المدة المقررة لهم تتم من فترة لأخرى، كما يجري الآن في المناسبات الوطنية والدينية في عدد من الدول العربية والإسلامية وغيرها، كسليمان بن عبد الملك الذي وليّ الخلافة بعهد من أبيه وكان حسب ما يروى فصيحا مفوّهاً ومحبا للعدل، وهو الذي عزل عمّال الحجاج وأخرج من كان في سجن العراق⁽²⁾، وكذا الخليفة المأمون الذي عفا عن الفقيه المحدث الحارث بن مسكين ومن معه من المساجين، وكان قد سجن مع من حمل من مصر إلى بغداد على أيام فتنة خلق القرآن في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، وولاه قضاء مصر⁽³⁾.

1. الأتابكي (جمال الدين)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، ج 9، ص 46.

2. السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر)، تاريخ الخلفاء، ط 1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1371هـ - 1952م، ص 225-226.

3. ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط 1، تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1412 - 1992، ج 12، ص 38.

والخليفة المستضيئ الذي كان يقتفي أثر الأنبياء والخلفاء الراشدين، فيتصدق ويطلق من في السجون⁽¹⁾، إذ أمر الناصر بالإفراج عن الأمراء المسجونين وغيرهم⁽²⁾، وأمر الأمير أيتمش البجاسي بالإفراج عن جميع من بالإسكندرية من الأمراء المسجونين خلا أربعة⁽³⁾. وجاء من بعده الملك عماد الدين أبو الفدا إسماعيل وأطلق سراح جميع المساجين بثغر الإسكندرية والوجه القبلي والبحري إلا من استحق القتل عليه⁽⁴⁾.

كانت بعض السجون العربية تتجاوز الحد الأدنى من مراعاة الشعور الإنساني، كسجون الحجاج في العراق التي لم تكن ملائمة للصحة العامة، وكان المساجين يعاملون بكل قسوة، فلم يكن لهم في ديماسه ظل من شمس ولا كن من البرد، وكان كل سجين يربط مع آخر بسلاسل⁽⁵⁾، وهنا يحضرنا قول أحد نزلائها الذي يصف أحد سجون الكوفة ويشبهه بالجحيم أو بالأحرى بسقر فيقول.

يا رب أبغض بيت أنت خالفه *** بيت بكوفان منه استعجلت سقر⁽⁶⁾

وكان سجن الحجاج بواسط لا يقل عن الأول وحشية، فهو حائط محوط ليس فيه مأل ولا ظل ولا بيت، فإذا أوى السجناء إلى الجدران يستظلون بها رماهم الحراس بالحجارة، وكانوا يطعمون خبز الشعير به الملح والرماد، فكان لا يلبث الرجل فيه إلا يسيرا حتى يسود لونه من العطش، فحبس فيه مرة غلام فجاءته أمه تتعرف خبره فصيح به لها، فلما رآته أنكرته وقالت هذا ابني كان ابني أشقرا أحمرأ وهذا زنجي، فقال لها أنا والله يا أماء ابنك، أنا وأختي فلانة وأبي فلان، فلما عرفته شهقت فماتت، قال وقال الحجاج ليزيد بن أبي مسلم: كم قد قتلنا في الظنة⁽⁷⁾، قال: ثمانين ألفا، قال:

1. المقري (أحمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، ج5، ص163-164.

2. الأتابيكي، المصدر نفسه، ج10، ص94.

3. هم أينيك وأخوه قطلوخيا وأسندمر الصرغتمشي وقيل جركس الجاولي الرابع.

4. الأتابيكي، المصدر نفسه، ج10، ص78.

5. أبو الفرج (عبد الرحمن بن علي)، صفوة الصفوة، ط2، تحقيق محمود فakhوري ومحمد روااس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت 1399هـ - 1979م، ج3، ص92.

6. البكري، المصدر نفسه، ج4، ص1141.

7. الظنة هي القليل من الشيء، ومنه بثر ظنون قليلة الماء، وفي المحكم بثر ظنون قليلة الماء لا يوثق بمائها، والظنة التهمة. انظر ابن منظور، المصدر ذاته، ج13، ص275.

وخرج من سجنه يوم مات الحجاج ما منهم من حل من قيد ولا غير حالا الا في بلده كان منه (1).

وهو أمر تكرر بعد الأمويين، فقد ذكر المقرئ في الخطط: أن سجون الفاطميين في مصر كانت أشبه بجهنم الحمراء، حيث كان السجناء يحشرون في مكان غير مسقف وهم في الحديد، يؤذيه حر الصيف وزمهرير الشتاء، ويتركون من غير أن يطعموا شيئا إلا بما يتصدق به الناس عليهم، وكان منهم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، الذين يستخدمون في الحفر والعمائر ونحو ذلك، حتى ما إذا انقضى عملهم ردتوا إلى السجن في حديدهم. ونتيجة للإغفال وعدم الاكتراث لأحوال المساجين، فقد حدث أن مات جلّ من بالسجون كما حدث بسجن باب الشام إذ احترق فيه مائة وثلاثون رجلا عند صلاة الجمعة على عهد المتوكل (2).

ونفس الشيء يصدق على أوروبا فقد كانت السجون الأولى مظلمة وقذرة ومكتظة بالمساجين وليس بها وسائل صحية حديثة، ومعظم الزنانات بها تهوية ضعيفة ووسائل صحية غير كافية، بها فرش على الأرض ووسادة حجرية ينام عليها السجين، وكانت هي الأخرى تأخذ مائها من الأماكن التي تقام بها، كسجن فليت السجن التاريخي المشهور في لندن، وقد اكتسب اسمه من موقعه القريب من نهر فليت. وقد شهد في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين حبس طائفة (التطهيريين) أو (البيوريتان) (3) البروتستانتية وضحايا محكمة قاعة النجوم، وأصبح في وقت لاحق سجنًا للمدنيين الذين قاسوا فيه كثيرا، وخلال الفترة الممتدة من أوائل القرن السابع عشر وحتى عام 1753م، كان أعضاء الكهنوت يعقدون زيجات سرية فيه وفي غيره من السجون، وكان يطلق على هذه الطقوس والاحتفالات اسم زيجات فليت وتوقف استخدامه عام 1842م، ثم هدم في وقت لاحق.

وسجن نيوجيت new gate البوابة الجديدة وهو السجن الرئيس لانجلترا لمدة تزيد على 700 سنة. وقد تم هدمه سنة 1902م، بعد سنوات من الاحتجاجات على حالته المتداعية. وكان السجن في البداية

1. ابن الجوزي، المصدر ذاته، ج 6، ص 342.

2. نفسه، ج 11، ص 223.

3. طائفة دينية بروتستانتية كانت تميل إلى الاعتقاد بفضل العمل الجاد، ونيل الهدف بالجهد الذاتي، وكذلك اهتمت بالتعليم اهتماما عظيما، ولذلك شكلوا جزءا كبيرا من الشريحة المتعلمة.

جزءاً من البوابة الغربية للندن، وهي أحد مداخل المدينة. وقد أعيد بناء البوابة الغربية في القرن الثاني عشر الميلادي، وسميت البوابة الجديدة. وكان المساجين يحبسون في غرفة فوق المدخل. ثم أعيد بناء البوابة الجديدة مرة ثانية حوالي سنة 1423 م. ولكن أصابها حريق لندن الكبير سنة 1666م. وساءت حالتها تدريجياً. وقد مات كثير من المساجين، نتيجة الزحام الشديد بغرف السجن، والطعام الرديء وغير الصحي، والأمراض المعدية مثل حمى السجن ((التيفوس)).

ومن السجون الشهيرة أيضاً سجن ((الباستيل)) بباريس العاصمة الفرنسية، وتعني كلمة باستيل bastille المبنى القوي والمتين. وقد بناه الملك شارل الخامس عام 1370 م ليكون قلعة، ثم استخدمت سجنًا لكل من يعارض الملك أو أحد رجاله. وحتى عام 1789م لم يكن في الباستيل إلا عدد قليل من المساجين.

وفي 14 يوليو 1789م حاصر الثوار الباستيل لكي يستولوا على البارود المختزن به، وأطلق الجنود النار على الجمهور المهاجم. لكن الناس اقتحموا القلعة وتغلبوا على الجنود وقتلوا مدير السجن وفي اليوم التالي بدأ الناس في هدم الباستيل. ومنذ ذلك التاريخ يحتفل الشعب الفرنسي بيوم 14 يوليو بوصفه عطلة قومية.

شخصيات عاشت حياة السجن

إن السجون لم تضم بين جدرانها كما يتبادر إلى أذهان الكثير المجرمين والخارجين عن القانون فحسب، بل ضمت شرائح وعتبات مختلفة ومتفاوتة بشكل كبير من حيث الانتماء الاجتماعي والثقافي والسياسي والأخلاقي والديني، فكان من بين المساجين حتى الأنبياء والخلفاء والفقهاء، ومن الأنبياء نذكر يوسف النبي الصديق عليه السلام، الذي اتهمته امرأة العزيز بهتاناً بالتحرش الجنسي ضدها، لكن العكس تماماً هو ما حدث، إذ دعت له لمضاجعتها فرفض ذلك واختار السجن على الزنا ومعصية ربه وذلك من خلال قوله ((رب السجن أحب مما يدعوني إليه))، وفي هذا الشأن يقول ابن وكيع ((واستغاث بربه عز وجل فقال ((والأ تصرف عني كيدهن أصيب إليهن وأكن من الجاهلين)). فأخبره الله عز وجل أنه استجاب له دعاءه فصرف عنه كيدهن ونجّاه من ركوب الفاحشة، ثم بدا للعزيز من بعد ما رأى من الآيات ما رأى كقَدِّ القميص من الدبر وخمش في الوجه وتقطيع

النسوة أيديهن وعلمه ببراعة يوسف مما اتهم به من تركه مطلقاً⁽¹⁾. فسجنه لسبع سنين، وكان الوحي ينزل عليه فيه، وقد قام النبي يوسف بإصلاح أوضاع ذلك السجن، وحوله إلى مكان للدعوة إلى الله وتحول معظم المساجين إلى عنصر إصلاح لا عنصر فساد ليتم الإفراج عنهم فيما بعد. وتحول هذا السجن فيما بعد إلى مكان ذي بركة، إذ عرف سطحه بإجابة الدعاء، وأهل تلك النواحي كانوا يعرفونه ويقصدونه بالزيارة، وهو يقع ببوصير من أرض مصر⁽²⁾، وفي عهد ابن جبير -أي نهاية القرن السادس الهجري- كانت أحجار هذا السجن تنقل لبناء القلعة الموجودة بالقاهرة⁽³⁾.

ولم ينج النبي إبراهيم الخليل الذي كان أبوه على أصنام الملك نمرود، فخالف قومه بأن دعاهم إلى عبادة الله، فبلغ ذلك الملك نمرود فحبسه في السجن سبع سنين أيضاً، ثم بنا له الحير⁽⁴⁾ بجص وأوقد له الحطب الجزل، وألقى إبراهيم فيه فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فخرج منها سليماً لم يكلم⁽⁵⁾.

أما من الأئمة فنجد أحمد بن حنبل المتوفي ببغداد سنة 241 للهجرة، الذي سجن من طرف المعتصم، وجلد تسعا وعشرين سوطاً على إنكاره خلق القرآن، وقيل ثمانية عشرة، وقيل ثمانين سوطاً⁽⁶⁾، وبعد أن دمع ابن حنبل المعتصم بالحجة، أراد هذا الأخير أن يتخلص منه بغير السيف، فقال لواحد من جلاديه: بكم سوط تقتله؟ فقال بعشرة يا أمير المؤمنين، فقال: خذه إليك. قال سليمان السجزي: فأخرج أحمد بن حنبل من ثيابه وانتثر بمنزلة من الصوف وشد في يديه حبلان جديان وأخذ السوط في يده وقال: أضربه يا أمير المؤمنين؟ فقال المعتصم اضرب. فضربه سوطاً، فقال أحمد: الحمد لله، وضربه ثانياً فقال: ما شاء الله كان، فضربه ثالثاً فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،

1. الطبري محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407، ج1، ص 206.

2. قال القاضي القضاي أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان

3. ابن جبير (محمد بن أحمد الأندلسي أبو الحسين)، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بيروت، مصر، ص56.

4. أي الجدار

5. الطبري، المصدر نفسه، ج1، ص 489.

6. ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (حتى 257هـ)، ط1، تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1992، ج 11، ص44، انظر أيضاً القنوجي، المصدر نفسه، ج3، ص124.

فلما أراد أن يضربه السوط الرابع نظرت إلى المئزر من وسطه قد انحل ويريد أن يسقط فرفع رأسه نحو السماء وحرك شفتيه، وإذا الأرض قد انشقت وخرج منها يدان فوزرتاه بقدرة الله عز وجل، فلما نظر المعتصم إلى ذلك قال: خلّوه. فتقدم إليه ابن أبي دؤاد وقال له: يا أحمد قل في أذني إن القرآن مخلوق حتى أخلصك من يد الخليفة، فقال له أحمد: يا ابن أبي دؤاد، قل في أذني إن القرآن كلام الله غير مخلوق حتى أخلصك من عذاب الله عز وجل، فقال المعتصم أدخلوه الحبس قال سليمان فحمل إلى الحبس وانصرف الناس وانصرفت معهم⁽¹⁾.

وممن يروى أنهم سجناء رأي أيضا يوسف بن يحيى أبو يعقوب البويطي⁽²⁾ المصري الفقيه صاحب الشافعي، والذي قال فيه الربيع بن سليمان: كنت عند الشافعي أنا والمزني وأبو يعقوب البويطي فنظر إلينا فقال لي: أنت تموت في الحديث وقال للمزني: هذا لو ناظره الشيطان قطعه أو جدله، وقال للبويطي: أنت تموت في الحديد⁽³⁾.

وفعلا فقد حمل إلى بغداد في أيام المحنة وأريد على القول بخلق القرآن فامتنع من الإجابة إلى ذلك فحبس ببغداد⁽⁴⁾، قال الساجي: كان البويطي وهو في الحبس يغتسل كل جمعة ويتطيب ويغسل ثيابه ثم يخرج إلى باب السجن إذا سمع النداء، فيرده السجان ويقول: ارجع رحمك الله، فيقول البويطي اللهم إني أجبت داعيك فمنعوني⁽⁵⁾. قال الربيع: فدخلت على البويطي أيام المحنة فرأيت مقيدا إلى أنصاف ساقيه، مغلوله يده إلى عنقه، وقال الربيع أيضا كتب إلي أبو يعقوب من السجن: إنه ليأتي علي أوقات لا أحس بالحديد أنه علي بدني حتى تمسه يدي. وتوفي يوم الجمعة قبل الصلاة في رجب سنة إحدى وثلاثين ومائتين في القيد والسجن ببغداد، وقيل إنه توفي سنة اثنتين وثلاثين

1. أبو الحسين (محمد بن أبي يعلى)، طبقات الحنابلة، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ج1، ص165. انظر ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج11، ص44، والقنوجي، المصدر نفسه، ج3، ص124.

2. بويط نسبة إلى قرية بويط من الصعيد الأدنى من ديار مصر، انظر ابن خلكان، المصدر نفسه، ج7، ص36.

3. ابن خلكان، المصدر نفسه، ج7، ص64، 45.

4. البغدادي أحمد بن علي أبو بكر الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج14، ص299.

5. الشيرازي (إبراهيم بن علي بن يوسف أبو إسحاق)، طبقات الفقهاء، تحقيق خليل الميس، دار القلم، بيروت، ص120.

والأول أصح رحمه الله تعالى وقال ابن القَرَاب في تاريخه توفي يوم الثلاثاء في رجب والله أعلم⁽¹⁾.

وأبو بكر محمد بن احمد المعروف بشمس الأئمة السرخسي والذي كان عالماً أصولياً، وله كتاب في أصول الفقه ابتدأه وهو في الجَب محبوس بسبب كلمة نصح بها الامراء، وكان تلامذته يجتمعون على أعلى الجب يكتبون له ما يقول، فلما وصل الى باب الشرط أطلق من الحبس، بعدها خرج الى فرغانة فأكرمه الامير حسن فوصل اليه الطلبة فأكملوه⁽²⁾.

أما من الخلفاء فنجد أيضاً الخليفة أبو جعفر المنصور الذي كان محبوساً بسجن الأهواز، وهناك تنبأ له أحد المجوس بالخلافة والحكم، إذ يروي أبو سهل بن علي بن نوبخت فيقول: كان جدنا نوبخت على دين المجوسية وكان في علم النجوم نهاية، وكان محبوساً بسجن الأهواز، فقال: رأيت أبا جعفر المنصور وقد أدخل السجن، فرأيت من هيئته وحالته وسيماه وحسن وجهه ما لم أراه لأحد قط، قال: فصرت من موضعي إليه فقلت يا سيدي ليس وجهك من وجوه البلاد؟ فقال: أجل يا مجوسي. قلت: فمن أي البلاد أنت؟ فقال: من المدينة. فقلت أي مدينة؟ فقال: مدينة النبي. فقلت: وحق الشمس والقمر إنك لمن ولد صاحب المدينة. قال: لا من عرب المدينة. قال: فلم أزل أتقرب إليه وأخدمه حتى سألته عن كنيته. فقال أبو جعفر. قلت: أبشر فوحق المجوسية لتملكن جميع ما في هذه البلدة... فقال لي وما يدريك يا مجوسي، قلت: هو كما أقول فاذا ذكر لي هذه، قال: إن قضي شيء فسوف يكون، قال: فقلت قد قضاها الله من السماء فطب نفساً فطلبت فوجدتها، فكتب لي بسم الله الرحمن الرحيم يا نوبخت إذا فتح الله على المسلمين مؤونة الظالمين ورد الحق إلى أهله لم نغفل عما يجب من حق خدمتك إيانا، وكتب جعفر قال نوبخت فلما ولي الخلافة صرت إليه وأخرجت الكتاب فقال أنا

له ذاكر ولك متوقع لله الذي صدق وعده وحق الظن ورد الأمر إلى أهله وأسلم نوبخت⁽³⁾.

1. ابن خلكان، المصدر نفسه، ج7، ص62.

2. القنوجي، المصدر نفسه، ج3، ص117.

3. ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (حتى 257هـ)، ط1، تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1992، ج7 ص337.

أما من الشعراء فنجد أبا العتاهية الشاعر المشهور، الذي ينسبه أكثر الناس

إلى القول بمذهب الفلاسفة⁽¹⁾، وكان يقول بالوعيد وتحريم المكاسب، وينشج على مذهب الزيدية، ولما ترك الشعر، حبسه الخليفة المهدي في سجن الجرائم والذي كان سيئا وغير ملائم للغاية حتى أنه طلب مكانا آخر يأوي إليه⁽²⁾ وفيما يروى أنه حبس معه أحد أصحاب زيد الهاشمي، ليدل عليه فأبى فضربت عنقه، وقيل لأبي العتاهية إن قلت الشعر وإلا فعلنا بك مثله فقال فإطلقوه⁽³⁾. وقد قال في أيام حبسه شعرا صار للبعض مؤنسا في ضللكم، وهو:

إلى الله فيما نالنا نرفع الشكوى *** ففي يده كشف المضرة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها *** فلسنا من الأموات فيها ولا الأحياء
إذا جاءنا السجن يوما لحاجة *** عجبنا وقتنا جاء هذا من الدنيا⁽⁴⁾

وممن عاش حياة السجن أيضا الشريف الطليق أبو عبد الله الملك مروان والذي ألف أكثر شعره في السجن، فقال فيه ابن حزم إنه في بني أمية كابن المعتز في بني العباس، ملاحه شعر وحسن تشبيهه، وقد سجن وهو ابن ست عشرة سنة، ومكث في السجن ست عشرة سنة، وعاش بعد إطلاقه من السجن ست عشرة سنة، ومات قريبا من الأربعمئة للهجرة، وكان فيما قيل يتعشق جارية كان أبوه قد رباها معه، وذكرها له ثم بدا له فاستأثر بها وأنه اشتدت غيرته لذلك فانتضى سيفاً وانتهر فرصة في بعض خلوات أبيه معها فقتله، وعثر على ذلك فسجن وذلك في أيام المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، ثم أطلق بعد ذلك فلقب الطليق لذلك⁽⁵⁾.

أما من الفلاسفة فنذكر الحكيم سقراط الذي كان من تلاميذ فيثاغورس، واقتصر من الفلسفة على العلوم الإلهية، وأعرض عن ملاذ الدنيا ورفضها، وأعلن بمخالفة اليونانيين في عبادتهم الأصنام وقابل رؤساءهم بالحجاج والأدلة الإلهية فألبوا العامة عليه واضطروا

1. الدمشقي (عبد الحي بن أحمد)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص25.

2. ابن خلكان، المصدر نفسه، ج1، ص224.

3. الدمشقي، المصدر نفسه، ج1، ص25.

4. نفسه، ج1، ص331.

5. المغرب في حلى المغرب، ط3، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1955، ج1، ص191.

ملكهم إلى قتله فأودعه الملك الحبس تحمدا إليهم ثم سقاه السم بعدها تقاديا من شرهم⁽¹⁾.

وكذا فولتير الذي دخل السجن بتهمة تأليف أشعار تسخر من الحكومة الفرنسية آنذاك. وأودع سجن الباستيل عام 1717م، حيث استطاع خلال فترة سجنه التي امتدت إلى أحد عشر شهرا، إكمال مسرحيته "أوديب"، التي جعل نجاحها من فولتير أشهر مؤلف مسرحي في فرنسا. ولكن نجاحه هذا، انتهى فجأة على إثر مشاجرة مع أحد الشبان من طبقة النبلاء الأقوياء، ويدعى شيفيله دي روهان، إذ انتهت المشاجرة بالزج بفولتير في سجن الباستيل لعدة أيام، وأعطى بعدها الخيار إما البقاء في السجن أو المنفى.

السجن بين الإجراءات العقابية والأهداف الإصلاحية والتأديبية.

إن السؤال الذي يواجهنا هنا هو: ما دور إقامة السجون وما المقصود من وراء احتجاز الأشخاص لمدة قد تتجاوز العقد أو العقدين من الزمن؟ أهو العقاب والاقتصاص في حد ذاته، أم أن من وراء ذلك غايات نبيلة تهدف إلى إصلاح وإعادة إدماج أولئك الأفراد من مرتكبي الجنايات والجنح بمخالفتهم للقانون؟ ألا توجد بدائل للسجن وما يتبعه من انتقاص لكرامة وأدمية الإنسان؟.

إن الاهتمام الحالي بالجريمة ومشاكل السجون، ساعد على تركيز انتباه الجمهور على النقاش المستمر حول أغراض وفاعلية السجون، وقد أوضحت الدراسات أن برامج الإصلاح الجيدة في حد ذاتها فشلت في إعادة إصلاح وإدماج الكثير من السجناء الذين أطلق سراحهم. وقد أدّى الفشل الظاهر لهذه البرامج إلى تركيز معظم الناس على السجن بوصفه عقوبة وليس علاجاً.

ومن جهة أخرى، فقد فشل الخبراء أيضا في أن يثبتوا بأن السجون تقلل من نسبة الجريمة، إما بتعجيز المجرمين، أو بكف الناس عن الخروج على القانون.

لهذا السبب فإن بعض الخبراء يعتقدون أنه من الأقل تكلفة، والأكثر إنسانية، والأكثر إنتاجية، أن يتم الاحتفاظ بالمخالفين للقانون في مراكز الإصلاح الاجتماعي بدلا من السجون.

1. ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص 70 وما يليها.

ويرى هؤلاء أنه يجب وضع المجرمين شديدي الخطورة في السجن، وهنا إشارة إلى ضرورة التفريق بين عقوبة الجنايات والجنح. هنالك بعض المحاكم التي قامت بعمل تجارب، وذلك بإصدار أحكام بالسجن، تسمح للمجرمين بالبقاء خارج السجن، وبعض هذه الأحكام تتطلب من المجرمين الدفع لضحايا جرائمهم، وبذلك يمكنهم مزاولة أعمال عامة في المجتمع.

لو أمعنا النظر في طبيعة الإنسان بشكل عام لوجدناه محبا للتملك وبلوغ ما استطاع إليه سبيلا من المال والملذات الدنيوية، ومن هنا كان الاختلاف بين البشر، فمنهم من يكتفي بما لديه ويعمل على تحقيق أحلامه بما يمتلكه من وسائل قانونية وبما يرضي ضميره والضمير الاجتماعي بشكل عام، ومنهم من يلجأ إلى تحقيق ذلك بأقصر السبل، أي بالتعدي على ممتلكات ومقدرات الغير، أو الاعتداء على النفس وما دونها، أو الاعتداء على القيم الدينية والأخلاق الاجتماعية النبيلة لأسباب يمكن اعتبارها مرضية أو شاذة، وبهذا كله فهو يمس النظام العام والسلم الأهلي أو يخل به.

وبهذا نرى أن للسجون دورا هاما في أمن الناس واطمئنانهم على مقدراتهم وحياتهم، ولا يمكن الاستغناء عنها تحت أي منظور أو طائل، فقد ورد في كتاب الطبري ما نصه ((وعظ الحكماء وقالوا لا تأخرن معاقبة لمستوجبي العقوبة، فإن في تأخيرها مدفعة للعدل ومضرة على المملكة في حال التدبير، ولئن نالك بعض السرور إن أنت خليت عن أولئك الدعار المنافقين العصاة المستوجبين للقتل لتجدن غب ذلك في تدبيرك ودخول أعظم المضرة والبليّة على أهل الملة⁽¹⁾))، والمقصود هنا من العقوبة الجزاء، والسجن إحدى تلك الجزاءات، فقد حدث أن أفرج السلطان الأشرف عن جميع المسجونين، حتى أرباب الجرائم وأغلقت السجون بالقاهرة ومصر، وانتشر السراق والمفسدون في البلد، وامتنع من له عند شخص حق أنه يطالبه خشية البطش به دون لقاء عقاب، فكان حال الملك الأشرف في هذه الحركة كمن قال الشاعر فيه.

رام نفعا فضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقا⁽²⁾

1. الطبري، المصدر نفسه، ج1، ص206.

2. الأتابيكي، نفس المصدر، ج15، ص94.

فالسَّجْن إذا ما عدنا إلى السبب الرئيس الذي أدى إلى إيجاده هو انتقاء شرّ المنحرفين في إطار قانوني تنظمه الدولة، أي أوجد للأشخاص الذين يخالفون الدولة ودساتيرها وقوانينها سواء كانت مستمدة من الدين أو كانت وضعية من صنع الإنسان، ولذلك فإن وجودها قديم جداً، فإذا كانت الحضارات القديمة قد تقننت في طرق تعذيب المتهمين والمساجين كالحضارة الفرعونية التي مارست أشد أنواع التعذيب، إذ كان يؤتى بالمعارض أو المتهم أمام الكاهن وعلى طاولته كتاب البراءة وكتاب الاتهام، فيطلب من المعارض وضع يده على أي كتاب يختاره فإن وضعها على كتاب الاتهام نفذت فيه عقوبة التعذيب والموت حتى ولو كان بريئاً، وإن وضعها على كتاب البراءة تمت تبرئته حتى ولو كان مجرمًا، لأن الكاهن في نظرهم لا يخطئ.

والحضارة اليونانية لم تكن أكثر إنسانية من الفرعونية، فأفلاطون صاحب الجمهورية الفاضلة كان يقول: العبد لا يتكلم إلا إذا تألم، وقسم البشر على ذاك الأساس إلى أسياد وعبيد، فالسيد لا يعذب ولا يسجن مهما أجرم، وعليه أن يدفع بدلا ماليا كتعويض عن خطاه أو زلته. كانت السجون ملاذا لتكليم أفواه أصحاب الرأي والحق، فقد استعمله فرعون ولوّح به ضد النبي موسى عليه السلام "فلما قامت الحجج عليه وانقطعت شبهه ولم يبق له قول سوى العناد، عدل إلى استعمال سلطانه وجأه وسطوته، وذلك حين قال: لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين، قال: أولو جئتكم بشيء مبين، قال: فأنت به إن كنت من الصادقين"⁽¹⁾، ومن هنا نخلص إلى القول بأن دخول السجن لا يعني دائما الخطأ أو الإجماع في حق النفس والغير، وإنما من منظور القانون الذي قد يكتفه الحاكم ليخدم مصالحه الشخصية دون موافقة الرعية عليه، أو اختلاف معه في الرأي ولو كان يدرك تمام الإدراك أن الرأي المعاكس له هو الأصح، فالفرعون المذكور في الآية يدرك تماما أنه ليس إلها وأنه بشر مثل غيره، لكن جبروته وكبرياه دفعته للقول بذلك وإكراه الناس على تصديقه. جاء الإسلام فيما بعد ليحفظ كرامة المرء مهما كان مذنباً، لأن الغاية من السَّجْن في الإسلام هي: الإصلاح والتأهيل، وحماية المجتمع، والإبعاد عن تكرار الجريمة، واعتبار المذنب وغيره من العملية لا التمثيل والتشهير به، ففي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز

1 ابن كثير إسماعيل بن عمر، البدايات والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ج1، ص251.

رضي الله عنه - تطورت السجون من حيث المبنى لتتلاءم مع آدمية الإنسان المحبوس - ومن حيث القوانين المنظمة لمعاملة المساجين، إذ أوجد لها ديوانا يشرف عليها، وأمر بإعطاء المسجونين مئونة وكسوة الصيف والشتاء، والعناية بمرضاهم، كما أصدر أمرا بأن لا يقيد أحد في المحابس بقيد من شأنه أن يمنعه من إقامة الصلاة، وأمر أيضا بالفصل بين فئات المسجونين، أي بين من يسجن في دين ومن يسجن في جريمة، كما جعل للنساء حبسا خاصا بهم.

وبهذا يكون السجن قد أخذ منحاه أو اتجاهه الصحيح بكونه عملية تضيق مادية أو معنوية، تحسس المخطأ بخطاه تجاه مجتمعه ودينه، فمما يروى عن الخليفة عمر رضي الله عنه أن رجلا يقال له معن بن زائدة، انقش على خاتم الخلافة فأصاب مالا من خراج الكوفة، فبلغ ذلك عمر، فبعث إلى المغيرة بن شعبة برسول طالبا منه أن ينفذ أمره فيه، فقال الرسول أدع لي بجامعة أعلقها في عنقه، فأتي بجامعة فجعلها في عنقه وجبذها جبذا شديدا، ثم قال للمغيرة: احبسه حتى يأتيك فيه أمر أمير المؤمنين ففعل، ففر إلى عمر طالبا العفو، فلما بلغه وطلب منه العفو، قال عمر: هذا معن بن زائدة انتقش على خاتم الخلافة فأصاب فيه مالا من خراج الكوفة، فما تقولون فيه، فقال قائل أقطع يده، وقال قائل أصلبه، وعلي كرم الله وجهه ساكت، فقال له عمر: ما تقول أبا الحسن، قال يا أمير المؤمنين رجل كذب كذبة عقوبته في بشره، فضربه عمر ضربا شديدا أو قال مبرحا، وحبسه فكان في الحبس ما شاء الله ثم عفا عنه⁽¹⁾.

غير أن السجن في الإسلام ومع بعض الاستثناءات، كان يعامل معاملة خاصة لا سيما إذا اقترب وقت الإفراج عنه، وهذا ما يدل على أن الإسلام كان يتوخى إصلاح السجين، وتأهيله ليكون عنصرا بئاء ينفع المجتمع بعد خروجه من السجن، ويتفاعل معه تفاعلا إيجابيا.

وليس بعيدا عن صميم موضوعنا وبهدف إعطاء نظرة متكاملة في إطار إيجاد البواعث والأسباب، لا ضرر أن نخرج على أوروبا في عهدنا الفيودالي، الذي كانت العدالة فيه لا تزال متوحشة، أو نخرج عن نطاق الإنسانية، إذ كان المحكوم عليهم بالسجن يتعرضون لعقوبات جسدية قد تكون مميتة في بعض الأحيان، وأدت هذه الممارسات التي لا تستند إلا على الانتقام ولا تؤدي إلا إلى تغريم

1. البلاذري، فتوح البلدان ج1، ص 448 وما يليها.

ومعاناة المجرمين أو المتهمين إلى ظهور انتقادات حادة من طرف فلاسفة عصر التنوير والذين رأوا بأن السجن لا يجب أن يكون مكاناً للعقاب بقدر ما يكون مكاناً يعطي للمساكين فرصة للاندماج ثانية في المجتمع بعد انقضاء فترة عقوبتهم، أو بالأحرى دفع دينهم تجاه المجتمع، فأصبح السجن مكاناً يمكن للسجين أن يتلقى فيه دروساً في التربية والأخلاق، هذه المهمة التربوية مهمة جداً في الواقع، فهي تمنع السجين بعد انقضاء مدة سجنه من ارتكاب جرائم أو أعمال يعاقب عليها القانون أو إعادة نفس الخطأ.

فعلاً لقد بدأت بعض الأصوات ومنذ زمن ليس بالقريب تتعالى وتدعو ليس إلى حسن معاملة السجناء فحسب، بل إلى إيجاد بدائل للسجن تعود على المتهم والمجتمع معا بالنفع، فظهرت أولى محاولات الإصلاح في القرن الثامن عشر الميلادي حينما قام داعية الإصلاح البريطاني جون هوارد بجولة في أوروبا لتفقد أحوال السجون. وقد أثر كتابه حالة السجون في إنجلترا وويلز 1777 م في إصدار قانون أدى إلى إنشاء السجون الأولى في بريطانيا والتي روعي في تصميمها الإصلاح إلى جانب العقاب. وقد حاولت هذه السجون أن تجعل نزلاءها يشعرون بتأنيب الضمير والندم على ما اقترفوه فأصبحت تسمى دور التوبة، وذلك من خلال إيجاد تدابير تطوعية بديلة ترتقي بالسجن إلى مقامات سامية، يتم فيها التقاهم بين الجهات المستصدرة والمنظمة للقوانين والجهات المنفذة للأحكام البديلة، وقد بدأ العمل بهذا في بعض المحاكم من جهات الوطن العربي كالجزائر والعربية السعودية، وقد ركز المنظرون لهذه البدائل على جملة من الأساسيات لإنجاحها، كقناعة القضاة بجدوى استبدال عقوبة السجن بالأعمال التطوعية، وتهيئة الرأي العام لتقبل ذلك، وقابلية هذه التدابير للتعديل والتطوير وفقاً للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية، ثم إصدار التشريعات الجزائية التي تسمح بتطبيق هذه التدابير وإصدار لوائح وتعليمات بتفعيل وسائل تطبيق التدابير العامة بالعمل للمصلحة العامة. وحتى وإن لم تنزل هذه التجارب إلى أرض الواقع أو إلى حيز التنفيذ فإن هناك حد أدنى من الأخلاقيات التي يجب مراعاتها في معاملة السجناء وفقاً لما يعرف بأحكام المعتقلات والسجون، ومعاملة المعتقلين والسجناء في الإسلام، ثم مقارنة ما جدد اليوم من تطور حضاري على أحوال المعتقلات والسجون في الأقطار التي تأخذ بهذا التطور، هي الباعث على هذا الاختيار.

وآخر ما نختم به موضوعنا هذا، بعض الأشعار التي قيلت بشأن
السجون ومنها قول أبي بكر الداني في أحد المساجين وقد انفكت عنه
القيود فأشار إلى ذلك بقوله فيها

قيودك ذابت فأنطلقت لقد غدت * * قيودك منهم بالمكارم أرحمًا
عجبت لأن لان الحديد وأن قسوا * * لقد كان منهم بالسريرة أعلمًا
سينجيك من نجي من السجن يوسفًا
ويؤويك من أوى المسيح بن مريما⁽¹⁾

وقول بعض الأعراب الذي كان يقطع الطريق فأخذه والي اليمامة في
عمله فحبسه فحنّ إلى وطنه فقال:

أقول لبوابي والسجن معلق * * وقد لاح برق ما الذي تريان
فقالا نرى برقًا يلوح وما الذي * * يشوقك من برق يلوح يمان
فقلت افتح لي الباب أنظر ساعة * * لعلني أرى البرق الذي تريان
فقالا أمرنا بالوثاق وما لنا * * بمعصية السلطان فيك يدان
فلا تحسبنا سجن اليمامة دائمًا * * كما لم يدم عيش لنا بأبان⁽²⁾

من كل ما سبق نخلص إلى القول بأن السجون والمعتقلات لم تكن
دوما مكانا لترويض الشواذ من الناس وكبح المجرمين عن أذية الناس
وتأمين حياة هادئة وأمنة لهم، بل عاش في غياباتها نبلاء وشرفاء
وليس أدل على ذلك من أنبياء ورسل اله رضوانه عليهم، ونؤكد أيضا
أن هذه المؤسسات لم تصل دوما إلى أهدافها من خلال جميع
الأشخاص وحتى المخطئين سواء من نظر القانون الوضعي أو نظر
المجتمع لهم، لأن معظم من دخلوها وهم يحملون أفكارا يقتنعون
ويؤمنون بها لم يرتدوا عنها إلا في أندر الحالات. ومن هنا بدأ العمل
على إعادة النظر في القوانين التي تسيورها والطريقة الأنجع التي تمكن
من تحويل المساجين من أناس منحرفين إلى فاعلين في مجتمعاتهم.
وتحاول بعض الدول اليوم أن تجد صيغة بديلة لعملية الحبس أي
بتوجيهها لخدمة الصالح العام وذلك بعد أن تبرم مديريات الأمن
وهيئات العدل عقودا مع بعض المصالح العامة في الدوائر والبلديات،

1. المقرئ، المصدر نفسه، ج4، ص258.

2. الحموي، المصدر نفسه، ج1، ص62.

لكن ذلك يتم وفق شروط وجدود إذ لا يمكن تطبيق هذه الصيغة على كل المساجين أو ذوي الجرح وإنما لأولئك الذين لا تتعدى عقوبتهم الثلاث سنوات ولا يشكلون خطراً على مجتمعاتهم.

قائمة المصادر

- 1..الأتابكي (جمال الدين)، التّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر.
2. الرازي محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، طبعة جديدة، تحقيق محمود خاطر مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، 1415هـ/1995م.
3. البكري (عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط3، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت 1403هـ.
4. البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر)، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت 1403هـ.
5. المناوي (محمد عبد الرؤوف)، التوقيف على مهمات التعاريف، ط1، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، 1410هـ.
6. الفاكهي (محمد بن إسحاق)، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ط2، تحقيق عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت 1414هـ.
7. الحموي (ياقوت بن عبد الله)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت.
8. ابن منظور (محمد بن مكرم الإفريقي المصري)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت.
9. القنوجي (صديق بن حسن)، أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.
10. ابن خلكان (أبي العباس شمس الدين)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1968م.
11. الشوكاني (محمد بن علي)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت.
12. السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر)، تاريخ الخلفاء، ط1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1371هـ - 1952م.

13. ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1، تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1412-1992.
14. المقرئ (أحمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.
15. أبو الفرج (عبد الرحمن بن علي)، صفوة الصفوة، ط2، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت 1399 هـ - 1979م.
16. الطبري محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407.
17. ابن جبير (محمد بن أحمد الأندلسي أبو الحسين)، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بيروت.
18. ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (حتى 257هـ)، ط1، تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1992.
19. أبو الحسين (محمد بن أبي يعلى)، طبقات الحنابلة، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
20. الدمشقي (عبد الحي بن أحمد)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت.
21. البغدادى أحمد بن علي أبو بكر الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت.
22. الشيرازي (إبراهيم بن علي بن يوسف أبو إسحاق)، طبقات الفقهاء، تحقيق خليل الميس، دار القلم، بيروت.
23. المغرب في حلى المغرب، ط3، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1955.
24. ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
25. ابن كثير (إسماعيل بن عمر)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت.